محمود حسانين

الراعي

نصوص

دائرة الثقافة - الشارقة 2021

إهـــداء

إلى سيف وكريم

موت

هل يعلم حامل الروح معنى ما يحمله؟ تلك هي أيقونة الطلسم المفقود بين عالمين، نحيا في أحدهما وتستمر الحياة في الآخر إلى ما لا نهاية، فلسفةُ الأشياء تبدأ مع تلاشيها، من فوق منحدر الحياة سقط منا حامل أحد الأرواح، كنا في مقتبل العمر وكلٌّ منا يحمل بين طيات كيانه روحاً تمتلئ بالحيوية والأمل، عندما هوى صاحبنا وروحه أفلتت منه؛ كان يسقط وروحه تعلو أو هكذا خيل إليه والينا، هل كان يعلم أن تلك الروح التي كالفراشة محلقة بعيدة عنه، قد حطت فوق غصن زهرة تنبت في أرضنا من جديد، كم كان يتمنى الحياة الجميلة وتمنينا معه، هاقد صارت أمانيه كأرواحنا، فراشات تحط على أغصان غيرنا، حتى ذلك الذي هوى هو الآخر من بيننا، ما كان يظن أنه سيلحق بصديقنا، ولم يعلم أنه رأى روحه تحلق كالفراشة لتحط على غصن جديد، كنا نتساءل هل سيخبره بأنه سقط من بيننا وحلقت روحه إلى غصن وليد، لم أجد يوماً تفسيراً لمعنى أني أرى شخصاً فأشعر بأني أعرفه منذ زمن بعيد، اليوم فقط أدركت بأن هذا الشخص حطت على غصنه فراشة لصديق فارقنا يوماً، عندما فارقني هذا السؤال واستراح رأسي منه؛ وجدتُ سؤالاً سيطر على عقلي، وأضناني تفسيره، متى تموت الفراشات؟ فكل محاولاتي قد باءت بالفشل، لماذا الأسئلة دائما تُخلق لتحيّرنا، هل السؤال الذي جثم على كاهلي؛ له إجابةٌ، أم إني لم أحصل على إجابة له يوماً؟ أرهقني السؤال، أفردت له مساحة بين أوراقي، وتركت حبر قلمي يطرحه على غيري، تأملته عندما ملأ مساحته بين دفاتري، قرأته وتركت للآخرين قراءته، لعلهم يخبرونني يوماً عندما تموت الفراشات.

لوحة

كوخٌ متداعٍ ومدفأةٌ، شطٌّ خالٍ من أمواج تتهادى، قاربُ صيدٍ شباكه فارغة، رمال يابسة، ونخلة يائسة، ملامح على وجه الحياة، جرداء تلك الأيقونة.

عمرٌ يناهز السنين، صوتُ موسيقا مشروخ، وتراتيلُ لكيانٍ مصلوبٍ، نيرانُ واهنة لا تبعث دفء شارد، عظامٌ متيبسةٌ، وشفاهٌ تهمس؛ لا تقوى على البوح، تتناول الأصابع سِيخ المدفأة، تعبث بعشوائية بين حطب ينفث دفء وهن، يبحث سن السيخ بين رفات الحطب عن دفء مستعر، يأنّ مع التقليب رفات الحطب، لا نسماتٌ صيفيةٌ تبعثها المدفأة.

رياحٌ شتويةٌ تحيط بالكوخ، تداعب برفق أفرع النخلة، أمواجٌ هادئةٌ تداعب صفحة الماء، القارب الخالي يهتز بلطف شديد، وهو يتململ بهدوء في مرقده، تومض بعض حبات الرمل، مع سقوط شعاع يأتي على خجل من بين السحب.

تنغمس شعيرات رفيعة وسط الألوان، تبحث عن لون يضاهي حالة التوحد، تتجمع الشعيرات تتحد في لون مغاير، تلتقط الفرشاة لون مزيج، بين حالة توتر وشعور بالوحدة، تخطّ طريقاً رماديّاً؛ ليصل إلى أفق بلا ملامح.

تنظر العجوز إلى الأفق من النافذة المتهالكة، تتوقف الشفاه عن الهمس، تتصلب اليد الممسكة بالسيخ، تترك سن السيخ ينهل وحده، من دفء الحطب المحتضر، تسكن حركة صفحة المياه، تستكين هدهدة القارب، في أعلى طرف النافذة، يظهر جزء من فرع النخلة وهو متجمد.

يتنهد الجسد المتكلس أمام اللوحة، يفرد راحته ثم يضمها، صوت فرقعة المفاصل يسري في باقي الجسد، وهو يميل إلى الخلف باسترخاء.

محاكاة الوحدة والأنس

جلست وحيداً أحتسي رشفات قليلة من فنجان القهوة، كنت أشعر بقلق ما، عندما نظرت إلى آخر ما خطته يدي، من سطور فيما أكتب، راجعت بتأنٍّ.

جلس على المقهى ينتظر أحداً يمر من أصدقائه، كان يشعر بالوحدة تقتله، كان يتمنى أن يقتل هو الوحدة والوقت معاً.

كنت أحتسي الشاي وأنفث دخان نرجيلتي، وأنا أسخر مما أكتب، لم يحن بعد وقت للكتابة المغايرة، أكملت.

كان الأصدقاء قد تأخروا عن موعدهم المعتاد، لم يأت منهم أحد، جلس وحيداً، طلب كوب شاي ونرجيلة، تأخر أيضا النادل، نظر حوله لا رشفات تؤنس وحدته، تصفح مجلة بيده، وجد نصاً شعرياً جميلاً، أخذ يقرأ:

مقهىً، وأَنتَ مع الجريدة جالسٌ

لا، لَسْتَ وحدَك. نِصْفُ كأسك فارغٌ

والشمسُ تملأ نصفها الثاني...

نظر إلى الطاولة أمامه، لا كأسَ فارغٌ عليها، المقهى يمتلئ بغرباء عنه، وهو يراقب غروب الشمس، كانت تخفي نصفها في كأس الرمال في الأفق، نظر نحوي، وألقى إلي الفكرة!

تناولت فكرته، بحثت بين قصائدي التي أعشق قراءتها، صادفني هارون الشعر، بحثت بين قصائده، فلم أجد ما يقتل وحدتي كما فعل هو، أخذت أستمع إلى صوت موسيقا تنبعث من حولي، كانت الكلمات تتخلل كياني، تذوبني:

أخرج من معطفه الجريدة وعلبة الثقاب

ودون أن يلاحظ اضطرابي..

ودونما اهتمام

تناول السكر من أمامي

ذوب في الفنجان قطعتين..

وفي دمي ذوب وردتين ذوبني..

لملمني.. بعثرني

نظرت نحوه، وجدته يستمع إلى الأغنية، وقد ابتسم لي ابتسامة ذات مغزى، وماجدة الرومي تترنم:

وبعد لحظتين دون أن يراني

ويعرف الشوق الذي اعتراني

تناول المعطف من أمامي

وغاب في الزحام

مخلفاً وراءه الجريدة وحيدة مثلي أنا وحيدة

لوحت له بيدي، بإيماءة من رأسه حيّاني، وترك سن قلمي يكمل سرد وحدته.

محاكاة

1- رأس

كان عابراً إلى الجهة الأخرى، حيث تقف سيارته، ورأسه امتلأت بالأفكار والهموم، فجثمت على كاهله، الرؤوس تنظر إليه في غبطة، فلا يلقي لها بالاً، كان مشغولاً بصراعات عقله، عندما أتتْ سيارة مسرعة، وتطايرت الرؤوس فزعة، حاول تفاديها اصطدمت به، فألقته على الرصيف، سقط رأسه، أخذ يبحث عنها بين الرؤوس دون جدوى، شخصت الرؤوس إليه ببصرها، علها تحظى بجسده، وكلما حمل رأساً بين يديه ليضعه على جسده، يجدهُ أجوف أو أبله، كان يبحث عن رأسه، بزخم أفكاره المرهقة له، عندما تملكه اليأس، وجد رأساً يختبئ بخجل، وضعه على جسده، ارتاح؛ لكونه لا يحمل هموماً، اتجه إلى سيارته وانطلق بها، غير عابئ بذلك الرأس الذي يحوي صراعاً محموماً، والذي هشمته عجلات سيارته.

2- قلب

كان ينظر إلى ما حوله، وقلبه امتلأ بالهموم، فجثمت على صدره، القلوب حوله ما بين منفطر وغليظ وجاحد، وقلوب صغيرة لا تكاد تجد لها مكاناً، صوت انفجار قريب؛ فزعت القلوب، حاول تفاديها، اصطدمت به فسقط قلبه بينهم، أخذ يبحث عنه بين القلوب الهَلِعة، دون جدوى، أحاطت به القلوب، علها تحظى بدفء صدره، وكلما وضع به قلباً، وجد نفسه تتألم، كان يبحث عن قلبه رغم همومه، عندما تَمَلّكه اليأس، وجد قلباً طفوليّاً بريئاً، وضعه داخل صدره، تنهد لكونه لا يحمل هموماً، تحرك في طريقه غير مكترث بهذا القلب الذي اعتصرته قدماه.

3- روح

يتحرك بخطىً وئيدةٍ، تتعثر أقدامه التي أثقلتها أيام عمره، تلك هي قواه التي خارت، وما كانت لتخور في زمن الصبا؛ حيث صارعت أعداء الأيام، قتلت فيهم الفقر وجرحت منهم الفوضى، قواه التي ما هزمت في حرب مع الزمن.

هاقد جاءها عدو ما كانت تخشاه، يا لك من خائن تغتال ضحاياك دون مواجهة، فكم قهرت مثلك؛ يتمتم لنفسه.

جلس يرتعش وفى عينيه دمعة الوداع، فقد أتته إجابة من آخر صوت يتمناه، رفرفت حوله أجنحة تحمل أروحاً تشبهه، من بين دموعه يرى سماء حياته ولم يتبقَّ فيها، إلا نجم كان يظن أنه نجمه الساري، أخذ يخفت حتى كاد يمّحى.

الراعي

صحوت على صوت ثغاء الأغنام، التي يرعاها أحد الجيران، في تلك المنطقة من الصحراء، التي أتينا إليها بقافلة كشافة، كان الصوت يُحدث ضجيجاً في الصباح الباكر، نظرت إليهم فوجدتهم كأنهم في محراب يترنمون، لا أدري ما الذي ذكرني بأن همهماتهم أقرب إلى أصواتٍ بشريةٍ، أخذت أتصنت لأستبين لغةً ما، لغة أعرفها، فشعرت بأني أُدرك ما يقولون، عندما فهمت لغتهم، تعرفت على ما يقولون، - المجد لك، المجد لك.

وقطيع يكمل:

- أيها الراعي المجد لك، أيها الراعي المجد لك.

تليهم صيحات:

- ما تلونا عليك غير القليل.

تُعاود الأصوات الأولى الترديد:

- المجد لك، المجد لك.

لم أتمالك نفسي، هرولتُ إلى ملابسي وانتعلت حذائي، هبطتُ الدرج بسرعة حتى وصلت إلى باب السكن، فتحته وما أن خرجت؛ حتى ذهبت إلى مكان تجمعهم، ولا أدري لماذا عندما رأوني؛ كان في أعينهم استفسارٌ لشيء ما، تلقيت نظراتهم بشيء من التحدي، وأنا أوجه حديثي إليهم قائلاً:

- لماذا تمجدون الراعي؟

نظر إليّ أحدهم وكأنه كبير القطيع، ورفع رأسه في شموخ قائلاً:

- نحن نمجد الراعي لأنه يطعمنا ويسقينا.

نظر آخر وكأنه يشارك الأول في مقام الحديث قائلاً:

- نحن نمجد الراعي، لأنه يؤوينا، وهو أدرى بمكان راحتنا، وسيرنا في مضارب الصحراء والوديان.

قال ثالث وكأنه يريد أن يتشارك في المقام مع الاثنين:

- نحن نمجد الراعي، لأنه يحمينا من الأخطار في السهول والوديان.

قال أحدهم؛ وهو يجترّ على أسنانه؛ بعدما مضغ بعض حبات الفول:

- نحن نمجد الراعي، لأنه أعرف كائن بما يصلح لنا من مراعٍ.

نظرت إلى باقي القطيع، وجدتهم منهمكين في جرش الفول، وهضم العلف، نظرت إليهم قائلاً:

- ألا تعرفون أنه يفعل لكم كل ذلك، لأنه يريد منكم صوفكم، وشَيّ لحومكم، فلماذا إذن تمجدون قاتلكم؟

عدت إلى السكن، وقد أوحيت لعقلي بأني في حلم، لأجد مشرف الرحلة وقد عقد ساعديه أمام صدره، وهو ينظر لي بغضب:

- ألا تعرف لائحة القافلة، لا أحد يتحرك من تلقاء نفسه، إلا في أوقات معينة، حسب جدول بعينه، لا أحد يفعل ما يحلو له بدون إذنٍ، إن كنت لا تعرف فاسأل، قبل أن تتصرف من دماغك، لا بُد من احترام القانون واللوائح، وأنا المسؤول عن تصرفاتكم وتحركاتكم حتى نعود، أفهمت؟

تمتمت وأنا أطرق برأسي وأنصرف من أمامه، وكان صوت تمتمتي كجرش الخراف للفول.

في المساء عادت الرحلة إلى موطنها، كان قد تملكني إحساسٌ بأني تعلمت شيئاً جديداً، لم أكن أعرف أنه لغة الأغنام، ولم أعرف أني تقيدت بقانونهم، لقد ظننت أنى أعلم منهم، ولكنهم هم من قيدوني بقانونهم، وقانون خالدهم، عندما عدت إلى بلدتي ودخلت حارتنا، كدت أنسى مع شكل الحارة المعتاد طعم رحلتي، غير أني ما أن وقعت عيني على إمام المسجد؛ وهو جالس بجوار القس يوسف، في محل الخواجة ساسون الساعاتي، حتى علمت أن قدر الراعي، يسير على كل من تصيبه لعنة رعاياه.

شتاء

شتاء يأتي على عجل في غرفة صيفية، ترشح جدرانها خطوطَ عرق، تمتص الريح الرطوبة، وتتبخر الحرارة من أجوائها، تصطك تروس ولاعتي، لا لهيبَ ينتجُ من اصطكاكها، تنتفض سجائري في مكمنها، لا دخانَ يُنفث من سجائري، تهتز في خجل إضاءة المصباح، فيشعر بالجنون الجالس بين خواء الفكرة، وأصابعه تتسابق بتوتر على أزرار اللاب، شرارة واحدة، صغيرة أو ربما كبيرة؛ تنتج من العدم؛ تشعل نيران الفكرة، تلهب شعيرات الدماء في جمجمة خاوية، يومض مع ارتعاش الضوء خاطرٌ جديد، جالس، واقف، حائر، يتقلب في أرجاء الدفء البائد، تَخِزُه سنان الصقيع، شتاءٌ آخرُ يمرّ بلا اكتراث، ليلٌ طويل، وأنيس جاف، ودخان لم يتصاعد بعد، شعلة تحاول أن تعيش للحظات، تبحث عنها الفكرة.

«ترتجف أصابعي وهي تخرج سيجارة من معطفها الورقي، يتشتت التبغ، تلملمه رائحة المخلوط المغشوش للمزاج، تتسحب نشارة التبغ لتحيط بالمخلوط، ترتعش أصابعي، تلملم ما تبقي من ديثار مشقوق»

من دفتر قديم تتناول الفكرة أشياءَ مهملةً، تتسابق الأصابع المرتعشة، المتصلبة، تسكب المهملات البالية على لوح جديد، ليس من ورق، عبر إلكترونات، تتجمد الفكرة، تحتاج إلى شعلة ولو صغيرة.

«أصابعي المرتجفة تتناول واحدة من دفترٍ واهية وريقاته، تضع في منتصفها سيجارتي المشقوقة، بلهفة تلتف بها، وتلتصق، أترك أصابع كف تلتقط ولاعتي، التي كادت أن تقع من موضعها، تتصلب الشذرات البرونزية، يتجمد سائل لم يساعد على الاشتعال»

في حماس من تريد القفز من زحام شديد؛ تترك الفكرة، ما أرهقها من مهملات، تحاول أن تشعل فيها النيران لإبادتها، تطاوعها خانة «دليت»

«أخيرا تخرج الشعلة كالومضة الخاطفة، وكطفل جائع تلتقمها فوهة سيجارتي، رائحة لذيذة يتخللها طعم مرير، مع الدخان صار الشتاء غريباً، نهره صيف الحالة»

الفكرة أصبحت تلمع في عينيها صورة الومضة، تستكين بعدما فرغت من مهمتها، ودخان بطعم الدفء يلفها، وشتاء الحالة يراوغها من جديد.

عنقاء

كان صراخها مدوٍّ، وهي تتلوى من ألم عظيم، تنقض عليه بكل شراسة وهي تصرخ بهستيريا غير عادية، ينظر إلى يديها؛ يرى قطرات من دم تسيل من مخالبها، يحاول أن يهرب منها بكل السبل بعدما أصابه الفزع الشديد، تنقض عليه بشراسة، وهي تنشب أظافرها في عنقه، يشعر بألم شديد وهو يحاول التشبث بأي شيء حوله، يدفعها بقوة؛ تسقط على ظهرها فتنهض كنمرة شرسة لتعاود الانقضاض عليه، يلوح بيديه وقد أمسك بهما شيئاً أشبه بالمطرقة، يصيبها في رأسها لتسقط مرة أخرى، ينهال عليها بكل قوته مرة وأخرى أشد قوة، يهشم رأسها، فتخرج من جمجمتها المهشمة؛ ديدان صغيرة كأنها دماء تسيل، تجحظ عيناه وقد سلبه الرعب شعوره، يستمر في الانهيال على الرأس المهشمة، والديدان تملأ أرضية المكان حوله، يصرخ؛ تتجمع حول قدمه الديدان، يقفز من الرعب، يقتل منها البعض والبعض الآخر؛ يتسلق قدميه ويدخل في ساقيه، يصرخ وهو يسقط متمرغاً على الأرض، يشعر بأيدٍ تكبل جسده عن الحركة، يقاوم بكل ما أوتي من قوة متشبثاً بالحياة، يشعر بتنميل خفيف يصيب جسده، سرعانما ينتشر في كل جسده حتى تهدأ حركته تماماً.

****

كانت إحدى الممرضات تجلس معه حينما تعود إليه حالته الطبيعية؛ وتحكي له عما فعله، وما كان يقوله، وهو غير مصدق حتى سألته مرة:

- ما الذي يفزعك في نومك هكذا؟

يتذكر ذلك الحلم، الذي جعله مفزوعاً أكثر من شهر، يقصه كاملاً، وهو يعلم أنه حلم مفزعٌ حقّاً.

تعاوده الصراعات، التي تتلاحم وتمتزج برؤى غير واضحة للحياة، وكل من

يخطر في ذهنه، ومواقف حياته التي لا تنتهي، ثم تهدأ نفسه وتصفو، ينظر إليها قائلاً:

- أنا لا أتذكر ما هو بالضبط! ولكنه شيء غريب، لم أرَه أو أسمع عنه من قبل؛ كأنه العنقاء.

تنظر إليه بدهشة:

- وما هي العنقاء؟

يتمتم:

- هي طائر خيالي، ورد ذكرها في قصص مغامرات السندباد، وقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك في الأساطير العربية القديمة، ويمتاز هذا الطائر بالجمال والقوة، فالعنقاء هي كائن خرافي، يَرِدُ ذكره في القصص الشعبية، والحكايات، ويقولون إن العَنْقاء طائر يكون عند مغرب الشمس، وهناك قصة يرويها ابن الكلبي أنه «كان لأهل الرّس، نبيٌّ يقال له حنظلة بن صَفْوان، وكان بأَرضهم جبل يقال له «دَمْخ» مصعده في السماء مِيلٌ، فكان يَنْتابُهُ طائرة كأَعظم ما يكون، لها عنق طويل من أَحسن الطير، فيها من كل لون، وكانت تقع مُنْقَضَّةً، فكانت تنقضُّ على الطير فتأْكلها، فجاعت وانْقَضَّت على صبيٍّ فذهبت به، فسميت عَنْقاء مُغْرب، لأَنها تَغْرُب بكل ما أَخذته، ثم انْقَضَّت على جارية، تَرعْرَعَت وضمتها إلى جناحين لها صغيرين، سوى جناحيها الكبيرين، ثم طارت بها، فشكوا ذلك إلى نبيهم، فدعا عليها فسلط الله تعالى عليها آفةً فهلكت، فضربتها العرب مثلاً في أَشْعارها، ويقال «أَلْوَتْ به العَنْقاءُ المُغْرِبُ أي طارت به»، وهى كما قلت إحدى المستحيلات الثلاثة عند أهل الجزيرة العربية، ويقال إنها كل ألف عام، تولد ثانية، فتترك موطنها وتسعى صوب فينيقيا، وتختار نخلة شاهقة العلو، لها قمة تصل إلى السماء، وتبني لها عشاً، بعد ذلك تموت في النار، ومن رمادها يخرج مخلوق جديد.. دودة لها لون كاللبن

تتحول إلى شرنقة، وتخرج من هذه الشرنقة عنقاء جديدة تطير عائدة إلى موطنها الأصلي، وتحمل كل بقايا جسدها القديم، إلى مذبح الشمس في هليوبوليس بمصر، ويحيي شعب مصر هذا الطائر العجيب، قبل أن يعود لبلده في الشرق، وقد ضاعت مصادر الرواية الأصلية، في زمن لا يأبه سوى بالحقائق والثوابت، ولكن الثابت في القصة، هو وجود مثل هذا الطائر العجيب، الذي يجدد نفسه ذاتياً.

تنظر إليه بدهشة:

- ولكنني أعرف أن العنقاء هذه، شيءٌ من المستحيلات، وغير موجودة، بس بنخوف بيها الأطفال.

يضحك وهو يجيبها:

- هذه هي أسطورة العنقاء كما ذكرها المؤرخ هيرودوت، واختلفت الروايات التي تسرد هذه الأسطورة، والعنقاء أو الفينكس طائر طويل العنق لذا سماه العرب «عنقاء» أما كلمة الفينكس فهي يونانية الأصل، وتعني نوعاً معيناً من النخيل، وبعض الروايات ترجع تسمية الطائر الأسطوري، إلى مدينة فينيقية، حيث إن المصريين القدماء، أخذوا الأسطورة عنهم فسموا الطائر باسم المدينة، وبعض الروايات أشارت أن عمر الطائر خمسمائة عام، إلى أن يحين وقت التغيير والتجديد، حينها وبدون تردد يتجه مباشرة إلى معبد إله الشمس (رع) في مدينة هليوبوليس، وفي هيكل رَعْ، ينتصب الفينكس أو العنقاء، رافعاً جناحيه إلى أعلي، ثم يصفِّق بهما تصفيقاً حاداً، وما هي إلاَّ لمحة حتى يلتهب الجناحان، فيبدوان وكأنهما مروحة من نار، ومن وسط الرماد يخرج طائر جديد، فائق الشبه بالقديم، يعود من فوره لمكانه الأصلي في بلد الشرق البعيد.

وهناك نشيد للإله رع يدعم هذه الفكرة، هو ''المجد له في الهيكل عندما ينهض من بيت النار. الآلهة كلُّها تحبُّ أريجه، عندما يقترب من بلاد العرب، هو ربُّ

الندى عندما يأتي من ماتان، هاهو يدنو بجماله اللامع من فينيقية، محفوفاً بالآلهة». والقدماء قد ابتدعوا أساطيرَ مختلفةً لموته، وللمدَّة التي يحياها بين التجديد والتجدُّد.

تنظر له مشدوهة بما يقول، وهي غير مصدقة أن هذا الإنسان، الذي يحمل هذا العقل؛ مريضٌ.

يكمل وهو يتنهد وقد ضاقت الأنفاس في صدره:

- أظن أن الدنيا تتخلى عن الحقيقة، وتجذب الناس إلى الوهم والجنون.

فجأة ينتفض؛ ترتعد أطرافه، تنظر إليه الممرضة في سرعة اعتادتها من طول فترة العمل في هذا المكان، تغرس الإبرة في لحمه، تدفع السائل، في ثوان تهدأ حركته، يسترخي جسده ويتهاوى على سريره.

صولو

أصابع بيانو قديم، يتهكم من أصابع ترتعش، عندما تلمس أصابعه، صوته عميق كأنه حكيم، موسيقاه تراتيل، في محراب نُسج من الأوتار.

يردد الجالس، أعزف وإن أبكاك العوز، عندما لا تدري ما بك؛ سر في الطرقات، أو تلاشى في المجهول، أخرج هاتفك واستمع إلى الموسيقا، ستعود إليك النبضات، فالموسيقا حياة، وعندما لا تجد لنفسك مكاناً بين الزحام، اصنع لنفسك جناحيْن من الموسيقا وحلق، فالموسيقا براح شاسع.

يتمتم؛ كأني المصلوب على صدرك، تراودني الأحلام بلحظة شرود من مدارك، لم تغمرني الطمأنينة، رغم هالة الضوء التي اعتلت رأس السيدة، لم يطمئن مثلي المصلوب، حيرتي هي حيرته، كلانا سجين، أحدنا داخل كيانكِ، ويصلب الآخر خارجه، فهل ترفقتِ بالمعجزة.

يدي ما زالت تهفو للمسة شذاكِ، تتذكر لمستها منذ مصافحةٍ عابرةٍ.

منذ رحلتي ضاقت بي الدنيا، ولم أعد أنا من كان يملك من الحب ألواناً وأشياءً، فلقد ضاعت منى مقتنياتٌ وصلواتٌ، كما ضاعت السنين بلا مغفرة، عودي من حيث أنتِ.

صولو.. هي درجة الارتقاء، تندفع الأصابع المتشنجة، تلامس أصابع البيانو، يتناغم صوته، يهمس مع اللمسات الخاطفة باللحن، يتوحد اللمس بين الأنامل، تتحد الرغبة، تخرج الموسيقا هادئة، تقفز صولو إلى قمة النشوة، أخيراً ينتهي العزف بتلاقي الأصابع جميعها في درجة الارتقاء.

تراتيل الحياة

1- العهد:

«قد تكون ذليلاً عند بلاط الطغاة، ولكن لا تقلدهم عندما تصبح قادراً على استضعاف الآخرين»

أعرفك بمن تكون:

أنت عندما كنت حراً أهديت الكون مبشرينَ، عندما أصبحت لصاً، أفشيت في الكون سفاحين، طبعك عدم الوفاء، حتى إنك صرت للأمثال مضرباً لا يصدق أبداً. هل أدركت أنت من تكون؟

هل تدرك أسلافك؛ كم وطئهم الظلم فلجئوا إلى المخلص، رغم أنهم جادلوه وعانى منهم عدم الطاعة، غير أنهم عندما تعلقوا بسفينته الربانية نجاهم، ولم ينج شيطانهم.

أتعلم أنّ ما عانوه من هذا الشيطان؛ هو ما تطبقه أنت على ظهر هذه البسيطة.

2- الأسفار:

« لوردة تهدى إلى السلام، خير لك من مطولة تصف فيها آلام الناس»

أما زلت تجهل من تكون:

-أنت إنسان فقد هويته وفقد المكان، تختار من بين بقاع الأرض أخصبها، تلقي بجنونك عليها فتغتصبها، تتكور الأرض كحبلى في شهرها الأخير، بكل قسوتك تنتزع منها أبنائها، وتصرخ بأعلى صوتك هذه «أمي» عند أقدامها موعد موتي.

-اسكت لا تتفوه فأنا ماضيك وحاضرك وأيضاً مستقبلك الفاني.

-بما أنك تناديني بـ«أمي» أتعرف أنك انتسبت إلى غير أبيك، وانتسب أهلك إلى غير جلدتهم، وعدك الله بالخير، وأقسمت إلا أن تكون غير حاصد شر. لقد اجتررت جرمك، واستقبلت حائطاً لتزرف على سفحه الدموع، فلا تبك.. فالمبكى لا يفيدك ولا يحررك من ذنبك، فلا يفيد جلد السياط من جرموا بقطع رأس كريم.

كانت الدرة كبلبل يصدح بأناشيد الحرية والكرامة، وفي أيديكم براءة اجتثثتموها من على الأرض.

3- الكتاب:

«عندما تكون في المعية، لا تنتظر من غير المعين النجاة»

أنتم هناك:

-أتدرون لم فعل هو معكم فعلته، لأنكم ما أخلصتم في خضوعكم لربكم، لم تختاروا كلمات تناسب شأنه الكامل، ما أحسنتم طريقة الوقوف على بابه العالي، أنتم من فعل بكم ما فعل، هل تدركون الآن من أنتم ومن هو...؟
هو إنسان شيطنه الخضوع.. وأنتم أُناس استهانوا بالخشوع... فيا أنتم ويا أنت.. هل تعرف متى تركت لك الإرادة بين السطور معنى كونك صاحب اختيار.

الأسرى

وقف يتأمل ما حوله، كانت روعة المكان تتجلى بقوة أعظم حضارة وصلت إلى ذهن الإنسان، والتي كانت مصدر شغفه، فكثيراً ما سأل نفسه؛ كيف كان يعيش هؤلاء القوم؟ وما السر الذي كانوا يحتفظون به؟ كيف برعوا في العلوم والطب، كيف عرفوا أسلوب التعامل مع الطبيعة؟ كيف استطاعوا أن يحملوا الأحجار الضخمة إلى أماكنَ بعيدةٍ، ما سر الحياة والخلود..؟

أسئلة كثيرة سيطرت على عقله وعصفت بنفسه حتى كاد أن يُجنَّ.

فجأة صاح برفاقه:

- انظروا هناك أعلى هذه الصخور..؟

نظروا إلى حيث يُشير، كان القمر يتخفى بين السحب الداكنة، ولا يظهر منه غير ضوء شاحب كأنه يحتضر، ولكنه صاح مرة أخرى:

- انظروا؛ هل ترون هذا الضوء المبهر هناك؟

صاحوا به في نَفَسٍ واحد:

- أي ضوء هل جننت؟ المكان شديد العتمة.

صرخ فيهم وهو يجرى في اتجاه التجمع الصخري:

- بل هو ضوء يأتي من باطن الأرض خلف هذه المرتفعات.

أخذ رفاقه يجْرون خلفه وينادونه دون جدوى، كان يعدو إلى حيث أشار، وكأنه جن جنونه. وهناك خلف الصخور الضخمة رأى ما ألجمه.

كان خلفَ الصخور مشهدٌ مروع، أشباحٌ لم يميزها والضوء يقترب منه، لم تكن الرؤية كما ينبغي، وعلى الرغم من عظمة المشهد؛ اخترقت عيناه الضوء، لمحاولة تمييز هيئة تلك الأجسام المتحركة هناك، كان الضوء يقترب منه ويغمره تدريجياً، وكانت الأجسام تحيطه من كل اتجاه، وفجأة هدأ كل شيء، لم يعد يرى الأضواء ولا الأجسام.

شعر بأنه يفيق من غيبوبة سحيقة، وأطرافه كأنها غير موجودة، حاول تحريك أيّ من أعضائه، ولكن محاولته باءت بالفشل، أخذ يصرخ ولكنه أحس كأن صوته لم يخرج من فمه، كان كمن انتقل إلى العدم، لا إحساس بما حوله، ولا شعور بجزيئات جسده وذرات كيانه، كل الذي يتذكره أن الليل كان قد سيطر على الكون، والسحب الشاحبة تتوسد السماء.

يسمع صوتاً جهورياً، كأنه يأتي من أعماق جب بلا قرار، كان الصوت له لَكْنة غريبة، أو لا يدري؛ فعقله مشوش، وهذا أول صوت يسمعه، انتبه فجأة على أنه استطاع أن يسمع، حدّث نفسه:

- إذنْ فقد استعدت جزءاً من إدراكي.

حاول مجدداً أن يحرك جسده، لم تستجب له غير أطرافه، والتي تحركت ببطء، أخذ يحاول التركيز أكثر، وهو يفتح عينيه عن آخرهما.

تردد الصوت مرة أخرى، كان يردد كلمة، ولكنها غريبة؛ لم يعرف بأي لغة كانت، أخذ يفكر من أين يأتي هذا الصوت وماذا يقول؟

مرة أخرى سمع الصوت، وفي هذه المرة كان يتحدث بلغة يعلمها، سادت فترة صمت، سمع بجواره همهماتٍ مكتومةً، حاول أن يلتفت؛ ولكنه أحسّ بثقل شديد على قدميه، وأخيراً استطاع أن يشعر بكيانه، وأخذت أطرافه وأجزاء جسده تتحرك، وتستجيب تدريجياً إلى إشارات عقله، الذي بدأ يستعيد سيطرته على الجسد، وكانت

عيناه أول شيء نقل إليه إحداثيات المكان، كان عبارة عن ساحة واسعة؛ بها أشجار غريبة الشكل والارتفاعات، كان منها المزدهر وغير المزدهر، وكان هناك الكثير من الأشخاص أو الأجساد أو الهياكل، تصطف على جانبيْ الساحة، وكانت أمامه مجموعةٌ ملتفةٌ حول ما يشبه العرش، يجلس عليه جسد ضخم الجثة، لا تستطيع أن تتبين ملامحه، ولا أي ملامح لمن يحيطون به، وكان بجواره شخصٌ ما.

حدّث نفسه:

- كيف أتيت إلى هنا؟ ومن هؤلاء الأشخاص أو الكائنات؟

تمتم بينه وبين نفسه:

- لا أدرى! ولكني غالباً على وشك الكشف عن سرٍّ عظيمٍ، فهذا الرجل هناك يبدو أنه ملك هذا المكان.

قاطعه الصوت العميق الذي يصدر من صاحب العرش قائلاً:

- مرحبا بك في مملكة «رع» لا تستغرب ولا تندهش، فلن تجد أي تفسير لما حدث لك، كل ما سوف تعرفه، هو أنك أصبحت من الآن هنا في مملكتي، وتحت سيطرتي؛ أنت الآن بين شعبي.

أخذ ينظر حوله بذعر وباستغراب، وتحول ببصره إلى هذا الجالس هناك على العرش يحدّثه وكأنه يعرفه ويعرف لغته، فرفع إليه شيئاً أشبه بالعصا القصيرة، مشيراً به إليه وهو يقول:

- لا تحاول أن تفكر بعقلك.. هنا الأمر يختلف عما بأرضكم.

نظر حوله وهو يفتح عينيْه بصعوبة، وقد تحول جسده لهيئتهم.

فقال صاحب الصوت:

- لا تقلق.

نظر إلى هذا الجالس الذي يحدثه:

- ولكنك تتحدث مثلنا، فمن أنت وأين نحن؟

أشار إليه وهو يقول:

- أنا أتحدث بعدة لغات، من تلك التي على أرضكم، وحين تحدثت أنت في قرارك، عرفت لغتك، فنحن هنا نتحدث جميع لغات أرضكم، نحن هنا في الأرض الخامسة، أو كما تطلقون عليها حضارة، فكل أرض عندنا تسمونها حضارة، ولكنها أراضٍ تفنى كل حين، لتحُلّ بدلاً منها أرضٌ أخرى، تسمونها حضارةً جديدةً، كما أن أرضكم هي الأرض السادسة، وأنتم تعلمون أن الأراضي سبعة، ظهرت منها حتى الآن ست أراضٍ، أرضكم وأرضنا وهناك أربع أراضٍ أخرى غيرنا، ولم تتبق غير أرضٍ واحدةٍ لم يكتشفها كائن في أي مكان أو زمان.

وأشار بعصاه؛ فشعر بجسده ينتفض، فصرخ بكل ما أوتي من قوة، ولكنه سقط، وشعر بيد تكبله، وهو يحاول الفكاك منها بلا جدوى، فأظلمت الدنيا حوله.

ابن آوى

ينظر لهم وقد التمعت عيناه من النشوة، كان قد تربع على عرش الغابة، وتوّجوه لها أسداً رغم فصيلته الكلبية، أخذ يلف الغابة ويهبط في كل منطقة، ليقدّم من يقطنها من فصائلَ؛ أجود ما لديهم من أنواع الطعام، وكان إذا وجد منطقة لا يوجد بها طعامٌ؛ صاح بها وترك صدى صياحِه يتردّد في قلوب الضعفاء من أهل الغابة، في منطقة الأرانب قدموا له نباتاً أخضرَ يانعاً، وقدّم له الخراف فراءً ناعماً ينام عليه، وقدم له البوم وسادةً من ريش من كل أنواع الطيور، وقدمت الإبل أقواها، ليكون راحلة له، وقدمت الجرذان خِدْماتها التطوعية، لينقلوا إليه أخبار الغابة، وآثرت الحمير أن تكون منساقة لحاشيته، كانت أرجاء الغابة متزينة ومتهيئة للقائه كما هو دأبها كلما نصبت عليها قائداً من فصيل مختلف، عندما انتهى به المطاف في منطقة الأسماك والتماسيح، قدموا له الماء والشراب بمختلف ألوانه، الأسماك قدمت الماء باردا من الغدران، والتماسيح قدموه ساخناً من الشلالات، والبعض تطوع وأهداه لؤلؤاً ومرجاناً، وقدم له سيدُ البحار عروسَ النهر قرباناً وولاءً، حتى أتى القرودُ يتقافزون من منطقتهم، يحملون له شراب الجوز وفاكهة الموز، وأشكالاً من الفواكه بعضها على هيئته، والبعض قام أخطبوط بعصره بين أذرعه، ليصير نبيذاً يشربه ابن آوى في صحة أهل الغابة الجبناء، وعندما أراد الرحيل، اجتمعت حوله التماسيح، تدمع لوداعه وكلاب البحر تنأنئ بفمها، والقردة يتقافزون لوداعه فقال لهم:

- عزمت على الرحيل الآن.

فقال الأخطبوط:

- ولماذا؟ ألم يعجبك مقامك بيننا وأكلنا وشربنا؟

- أكلت من ثماركم وشربت من أنهاركم.

- إذنْ؛ لماذا الرحيل وقد مُلئت أمعاؤك؟

فنظر إليه بخبث وهو يقول:

- دع عنك شأني واهتم بشأنك أنت.

لوح بأذرعه

- شأني بأن أذرعي تصل إلى أي مكان وتأتيني بكل ما أشتهي.

تركهم بعدما حمله البعير وجاست الجرذان أرجاء الطريق لتأمينه، وساقت بنات آوى الحمير؛ بثقلها الوفير من الخيرات.

احتباس

كان الضوء يقترب منهما ويغمرهما تدريجياً، وكانت الأجسام تحيطهما من كل اتجاه، وفجأة هدأ كل شيء، لم يعودا يريا الأضواء ولا الأجسام.

يجد نفسه يقف داخل بلورة زجاجية، وأمامه يظهر مجسمٌ مصاحَبٌ بصوتٍ يتحدث: - اليوم الأول من أغسطس عام «9994»، مع بداية القرن الخمسين، ظهرت عدة أحداث جعلت الكيان البشري في حالة قلق وترقب.

بعدما صارت العوالم كتلة واحده وتماهت الأجناس، واختلطت ثقافات لم تكن موجودة، أصبح الكون كله عبارةً عن شحنة اللا ماديات؛ لم يعد للمادة وجودٌ؛ أصبح الهواءُ مصدرَ كل شيء، حتى الغذاء صار مشعّاً في الهواء.

يتحرك داخل كُرَته الزجاجية التي يقف بها، والتي تسبح في فضاء المدينة بين كُراتٍ زجاجيةٍ، يقطنها بشر غيره، بعدما أصبحت المساكن جوالة في فضاء المدن، ومصنوعة من ألياف شبه زجاجية، تُشفّ الخارج ولا تُشفّ الداخل.

يتابع الصوت:

لقد انطلقت محطات التمويل الإشعاعي الغذائي، لتمد البلورات السكنية، بما يحتاجه كل ساكنٍ بها، فعليكم الاستعداد لتلقي الدعم.

يلمس المجسم؛ فتظهر له أيقونات لتعدد الاختيارات، يلمس على خيار «محاكاة الواقع» ينبثق صوت يقول:

لقد تم في القرن الثلاثين تنفيذ مراحل التطور، التي قام بها الإنسان منذ زمن، بعد انفجار الاحتباس الحراري، الذي فجر درجة الحرارة السطحية المتوسطة في العالم مع زيادة كمية ثاني أكسيد الكربون، وغاز الميثان، وبعض الغازات الأخرى

في الجو، عندها تم تحويل كل المواد التي يتغذى عليها الإنسان، إلى غاز ينتشر في الهواء ويستنشقه الإنسان، فيشعر بالشبع ويرتوي جسده فلا يشعر بالظمأ، بعدما أصبحت الأرض سطحاء، بدون معالم تميز مكاناً، تكسوها مادة تجعلها مصقولة، لا تصلح لشيء فوقها، وتمت صناعة تلك البلورات الفردية ليقطنها البشر دون شريك فيها، لتقيهم من الإشعاعات المضرة التي انتشرت في الكون، وتمت صناعة ممرات لها، لتمكين الدخول من بلورة لأخرى، لكي يتزاور البشر فيما بينهم، ويتم التزاوج والإنجاب بينهم، وقد تم حينها الاستغناء عن كل الحيوانات، وكل النباتات، وتحويل الغذاء للبشر إلى غاز يتم ضخه مع الهواء، وأصبح عمل الإنسان يقتصر على منصات التواصل التكنولوجية، من داخل مساكنهم، ويقتصر عملهم على تواصل الأخبار بين الكواكب الأخرى، التي ساعدت الإنسان على تغيير مسار الحياة إلى هذا الحد.

يتنهد وهو ينظر حوله، يتمتم:

لقد صار العالم بل الكون؛ يخضع لسلطة المعلومات وتبادلها، حتى عملُ الكائنات صار من خلال شاشات بلورية، يمكنهم من خلالها انجاز أي عمل، صارت الحياة رتيبة بلا مشاكل أو صراعات، الكل عنده ما يحتاجه فلا حاجة لما يملكه الغير، لعدم وجود أي شيء مختلف لديهم.

يقف أمام بلورة عرض الأخبار؛ المتجسدة أمامه، وهي تعرض صوراً لعواصم العالم، وصوت يتردد حولها، ما زالت تتوالى الأخبار...

يظهر مذيعٌ يرتدي بذلة رمادية اللون، ملتصقة بجسده، حتى أنك تشعر أنه لا يرتدي شيئاً، يوجه حديثه لكاميرا أمامه، قبل أن يوجهه للمشاهدين، ورغم مظهره الأنيق، فإن ذلك لم يخفِ الوجوم والرجفة، التي علت وجهه وهو يتحدث قائلاً:

رغم تطور العلم و(التكنولوجيا) وعصر «مركز الإدارة الكوني» والسرعة

الفائقة في حركة سير الحياة في القرن الخمسين؛ فإن الطبيعة البشرية تتفق في إحياء الموروثات الموجودة، بارتباطها بالاعتقاد الزمني، الذي لم يتأثر بالتطور العلمي، وسباق الحضارات وعلوم لم يكن الإنسان ليبلغها، حتى لم يعد أمام الإنسان شيء غير أن يعود مرة أخرى إلى الماضي، حتى يستريح من سباق العلوم والتكنولوجيا.

يقلب بين القنوات، يجد كل شيء في عدم تركيز، الكل يحلل ويفسر بلا هدف.

تتسارع الأحداث...

العالم بعد آخر حدث أصبح الهواء فيه مميتاً...

تظهر المذيعة:

هناك أخبار عن ظهور مادة تنتشر في الهواء تفسد خاصية غذائه.

وكلاء الأنباء...

بعض الجهات تتهم «مركز الإدارة الكوني» بأنها وراء هذه المادة.

قائل يظهر في أحد القنوات:

-إنها من نتاج تطور حلقة الغذاء الإشعاعي؟.

آخر يقول:

إن هناك إشعاعاً من بعض التجارب، تسرب فأصاب مركز التغذية المكلف بتحويل الهواء إلى غذاء للإنسان.

الإشاعات تنتشر هنا وهناك، الأقمار الصناعية أصيبت بالعطب، وتوقفت تماما عن العمل، أرسلت الوكالات الفضائية، إحدى بعثاتها لتقصى النتائج بلا جدوى.

الأمر جَلل؛ هل ستكون آخر حياة للبشر في الكون...

في صباح يوم الحادث؛ قطعت الإذاعة البث، وانهالت على الناس سحابات الغم، الكل في حيرة، الموت آتٍ، لا مفر..

ولكن الأمر جلل، العقل لا يستوعب ما يحدث.

على المستوى الشعبي، نددت العديد من الجهات والهيئات والمنظمات بالحادث، كان تعليق الخارجية الكونية بأنها «أنباء مفزعة»، مضيفة أن هذه الأحداث الأليمة تعتبر عاقبة محزنة؛ يؤسف لها.

كل يوم بعد يوم، تتكشف للإنسان حقائقُ البشر، فوداعاً يا أيها التاريخ، ستحُلّ على الدنيا ماسحة الذكريات بين البشر، لم يعد لك مكان أيها المجد.

يتوجس خيفة، ينفض عن نفسه هذه الفكرة دون جدوى، فجأة تُظلم الدنيا أمام عينه لم يَدْرِ لحظتها أين هو؟ ولا أيّ حياة يحياها؟

تتلقفه الأيدي، تتسارع الخطى، تعلو الأصوات، ينطلق النفير..

دستوبيا

سأنام في السنين القادمة كثيراً، ويخيم الحزن على أرض وطئتها قدماي، وتراب كان يعفر خطواتي، سأصير تراباً أعفر خطوات السائرين، وينقلني الهواء بين دروب المدينة، لألهو كما كنت دوماً في صباي، ستذكرني النواصي وأرصفتها الملساء، وسأعلو كما كنت أتمنى دوماً لألمس المدائن والقباب، فقباب مدينتي يعلوها ركام تاريخ صبا الأجيال، لم أعرف بأني في سجلاته؛ سأرقد شاباً تحت قباب مدينته الصماء، للموت أوجه كثيرة، حزنٌ وتبريح وبكاء ونحيب ثم تمتمات يعقبها رثاء، وللميلاد وجه السعادة وضحكات البراءة، ظلالٌ تلقي في قلبي الرهبة، هم ملائكة في عالم من الخيال، لم أر غير ظل يأتيني فيملأ قلبي بهجة، وحينما يختفي أجلس حزيناً عليه، حتى وإن طافت بي كل الظلال، فلحظة اختفائه تبقى سراباً في عيني، تنادت عليّ الأعضاء التي كلت من جرعات «كيميائية» لا تداوي، تهرم منها أعضاء جسدي الذي ينهار، أصرخ بكل عذابات الحياة التي مارستها، حَنُوطي جاهز أيها السادة، أعلم بأني أستعد لمعراج روحي، نظرات من حولي تفصح عن دعاء وأمل، ولكنها تخفي وراءها يقينهم بالرحيل، تحدثهم نفسي بما لا ينطق به لساني، لقد كنت أحب الحياة، كما أحببت تدوين أفكاري، كم تخلصت من أوجاع؛ فرسمتُها كلماتٍ، ولكنْ هذه المرة؛ أحاول أن أتخلص من جسدي، لأتحرر من ثقل جسد مثقل بالآلام، لتبقى روحي خفيفةً؛ تحلق كيفما تشاء.

المحتويات

إهــداء	2
موت	3
لوحة	4
محاكاة الوحدة والأنس	5
محاكاة	7
الراعي	9
شتاء	21
عنقاء	41
تراتيل الحياة	91
الأسرى	12
ابن آوى	52
احتباس	72
دستوبيا	13